

ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

الرضا

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟

ج: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: «إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي».

ونظر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عدي بن حاتم كئيبيًا، فقال: «يا عدي: ما لي أراك كئيبيًا حزينيًا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابنائي، وفقت عيني فقال: يا عدي! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله».

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمده الله تعالى، فقال أبو الدرداء: «أصبت، إن الله تعالى إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وقال علقمة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال: «هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى».

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنَجْجِيَنَّهُمْ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

قال: «الرضى والقناعة».

وفي الأخبار السالفة: أن نبيًا من الأنبياء شكى إلى ربه تعالى الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدوك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد

أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي، لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأحونك من ديوان النبوة. وفي «زبور داود» ﷺ: «هل تدري من أسرع الناس مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألستهم رطبة من ذكري». وقال داود ﷺ: «يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض». وقال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر. وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله ﷻ». وقال الحسن: «من رضي بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه». وقال عبد الواحد بن زيد: «الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين». وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته لولا شماتة أعداء ذوي إحن
ما سرتني أن إبلي في مباركتها وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

س: هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟

ج: يتصور الرضا فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضيًا به، راغبًا في زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجامة والحجامة والقص، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منه الحجامة.

وكذلك كل من يسافر في طلب الريح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضيًا بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاتته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه، ويبطل

الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجنيد رحمته الله: «سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا». وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لوقطعنا إرباً إرباً، ما ازددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور في حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء، فبينما هو يحرك القدر، قالت: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم. ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسنن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أحدهما: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما قضى الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له».

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خير له».

وعن مسروق قال: «كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خبأهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال، الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب، فحزنوا،

فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم ويقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوب والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كليهم وحمارهم وديكهم».

وعن سعيد بن المسيب قال: «قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني: فإن الله قد بعث نبيًا هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أيامًا وليالي، حتى تلتفتما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطأ حماريهما، فتزلا يمسيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشياً عليه، فحانت من لقمان التفاته، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا ابت: أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟!»

وقد نفذ الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجمع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيرا لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يجاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئًا، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئًا، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح اهواء مسحًا. فلم يزل

يرمقه بعينه حتى كان منه قريبًا، فتواري عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفیه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟، ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفیه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يجبسكما عني بما شاء، فجبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام، فاستوى قائمًا، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلاً طعامًا، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلاً ماء، ثم حملهما وحمايهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام الليالي».

الوجه الثاني: الرضا بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالقصد والحجامة وشرب الأدوية انتظارًا للشفاء.

الوجه الثالث: الرضا به لا لخط وراهه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون الذا الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه، ولو كان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقدته من نفسه، لأنه إنما فقدته لفقد سببه، وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات، فمن فقد القلب، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التي لا يمظنة لها سوى القلب.

س: هل الدعاء يناقض الرضا؟

ج: الدعاء لا يناقض الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُوكَ رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم. وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جدًا.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هاتين الحالين.

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فأروا السكوت عن الإنكار مقامًا من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا توارد على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضًا عدو لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليمًا للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتًا عند الله تعالى وبغيضًا عنده، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهومن هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معيارًا صادقًا، وهواني أقصد إلى فلان فأضربه ضربًا شديدًا يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا، فكل من أحبه علمت أنه أيضًا عدولي، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصدريقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل

البغض الذي هو سبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول: أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله ﷻ دواعي الشهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ﷻ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي. ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: «لويلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لما توار شوقاً إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي». وكانت امرأة متعبدة تقول: «والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى، وحباً للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟

قالت: لا، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟».

النية

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» [أخرجه البخاري، ومسلم (١٩٠٧)].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». أخرجهما في «الصحيحين».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد خلفتهم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتهم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض» [أخرجه مسلم (١٩١١)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)].

وعن أبي كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،

قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالا ولا علما، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ: فهما في الوزر سواء» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٧٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨) كتاب الزهد، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٦٤)].

وعن أبي عمران الجوني قال: «تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيرا وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادي الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يارب: إنه لم يعمله، فيقول ﷻ: إنه قد نواه».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى».

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملا لله تعالى، فقيل له: أنو الخير، فإنك لا تزال عاملا وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوى أن يصلي بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: «ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه» [أخرجه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترهيب والترغيب» برقم (٦٠٠)].

س: ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟

ج: النية، والإرادة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

س: إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟

ج: اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: المعاصي، فلا تتغير

عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجدًا بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا، هيهات!

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهما اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلًا بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات،

تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة. ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمته الله: من طاب ريحه زاد عقله. وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه. وقال بعض السلف: إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطيب قلبه أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أو صينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن أكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تيسر

لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له. وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لو مَلَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعب حينئذ. قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا له طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، معالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الإخلاص

س: اذكر طرفاً من أهمية الإخلاص وفضله؟

ج: اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكي، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكي إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعامل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن النية أولاً، لتحصل له المهرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٤]، وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

ويروى عن الحسن قال: «كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله، فلقبه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله.

قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: كذبت، مالك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسلطت عليك».

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «يا نفس أخلصي وتخلصي». وقال أبو سليمان: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى». وحكي أن رجلاً كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء، فسرق درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرّة، فقد وجدنا الدرّة.

س: وضح حقيقة الإخلاص؟

ج: كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصاً.

والإخلاص يضاد الإشراف، فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية.

والشرك منه جلي، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم بابه، وإنما نتكلم الآن انبعث لقصد التقرب، لكن امتزج بهذا الباعث

باعث آخر، إما من الرياء، أو غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بجمرة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعثة التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى:

قيل لسهل: أي شيء على النفس؟ قال: «الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب». واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه. ومن الرياء ما هو أخفى من ديب النمل، فليطلب هناك، وحاصلة أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

س: ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟

ج: أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب، ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحفظ النفس. وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تحلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوماً وتساقطاً، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضرر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حفظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً، والله تعالى أعلم.

الصدق

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟

ج: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» [أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)].

وقال بشر الخافي: «من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس».

س: ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟

ج: لفظ الصدق قد يستعمل في معان: أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يجترز عن المعارض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى غيرها لثلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله [أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)]. وقال ﷺ: «ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً، أو نعى خيراً» [أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)]. وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد، لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحبه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالا تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت: الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريره وعلانيته، حتى لا تدل

أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله ﷻ: هذا عبدي حقًا».

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ مِمَّنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: «عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربا».

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً. فلا غاية لهذا المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغاً له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

المحاسبة والمراقبة

س: اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ

سُورَ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴿٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٦-٨]. فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

س: اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟

ج: قد تحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن متقلبه. ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته. فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمراقبة فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاقبة. فكانت لهم في المراقبة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشاركة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة.

س: تحدث عن المشاركة وأثرها في المحاسبة؟

ج: اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، وبشارطه ومحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، وبشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن حياتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما

شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها. فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة نفسه فيقول للنفس، ما لي بضاعة إلا العمر، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخر أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاها ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدني اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته. ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها

رعايا خادمة لها فيه هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء. فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغني عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومطالعة كتب الحكم للتعاطف والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير. وأما البطن، فيكلفه ترك الشره، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاه ذلك يطول، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة، وفي النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تعود النفس ذلك، فيستغني عن المشاركة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمالنا الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان».

وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهبؤوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَ يُدْعَى الْمُتْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾» [الحاقة: ١٨].

س: وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟

ج: إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)]. أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: «ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة».

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: «رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر». فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب ابن منبه في حكمة آل داود: «حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يجبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقوة. وهذه الساعة التي هو مشغولٌ فيها بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو

تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح».

س: وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

[الحشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل، ولذلك قال عمر رضي الله عنه:
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله».

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله تعالى، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم. ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المالس، وفي الربح، وفي الخسران لتبين له الزيادة من الثقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولاً على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبها ليستوفي منها ما فرط. قيل: كان توبة بن الصمة بالرقعة، وكان محاسباً لنفسه، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي للعبد

أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لورمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلات داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسَوَّاهُ﴾.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المسلم إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روي عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: «إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين». قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه: «أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين».

وحكي أن: «تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع».

ومر حسان بن سنان بغرفة فقال: «متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعينك! لأعاقبك بصوم سنة، فصامها».

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله، مثال ذلك: ما حكي أن رجلاً من بني إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حول رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي.

فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزاً في شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكي عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة،

فلطم عينه حتى نفرت. وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديدًا، وأنه وجد في نفسه توقفا عن الغسل، فألى ألا يغتسل إلا في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلًا. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا.

س: تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟

ج: إذا حاسب العبد نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤديها بثقل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع. وقال ابن المبارك: «إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً».

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله. قال بعضهم: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعاً». «وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة». «وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفّر»، «وحج مسروق فما نام إلا ساجداً». «وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية». «وكان كرز بن وبرة يجتم كل يوم ثلاث ختمات»، «وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلي بيكيان الدم»، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: «علم صدق باطني فأعاني على ظاهري». ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: «إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً والله يا إخوانه! لأصلين لله ما أقلنتي جوارحي، ولأصومن له في أيام

حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناى».

س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟

ج: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقتته». وقال أنس رضي الله عنه: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخل حائظًا فسمعته يقول وبني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك». وقال البخاري بن حارثة: «دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات». وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأوف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمانة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتركيتها وفضامها عن مواردنا، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمته بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها.

وسيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغبوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أوفي غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت.

فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جري ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قرب أصبعك من النار، يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة

منعت أكالات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح وينتهي لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لتتعم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا.

وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد طول، أم النار في الدركات؟ فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطبق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صباية، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعلمي في أيام قصار لأيام طوال، وأعدي الجواب للسؤال. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسير. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

التفكير

س: اذكر أهمية التفكير وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟

ج: قد أمر الله سبحانه بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿رَبَّنَا كَرِّمْنَا فِي مَخْرَجِ الْمَوْتِ وَارْتَبِطْنَا فِي حَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر

والحديث حسنه الشيخ "في السلسلة الصحيحة" (١٧٨٨). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة». وقال وهب بن منبه: «ما طالت فكرة امريء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل». وقال بشر الحافي: «لوتفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه». وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، قال: «أمنع قلوبهم من التفكير في أمري». وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمرء، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فوقع في دار جار له، فوثب عرياناً ويده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: «ما شعرت بذلك».

وقال يوسف بن أسباط: «إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لنظر بها إلى الآخرة». «وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم». وقال أبو بكر الكتاني: «روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين».

س: في ماذا يكون الفكر؟

ج: الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباحدة عن الله، والمقربة إليه. وينبغي لكل طالب أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع.

وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المسلم المشمر. فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ.

ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغايرون النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها. ومن أحسن من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه.

وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولومت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفتن لخفايا هذه الصفات من قلبه،

نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

س: ما حكم التفكير في ذات الله ﷻ؟

ج: قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «تفكروا في آلاء ولا تفكروا في ذات الله» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر ﷺ]. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨) [فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أوتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأما التفكير في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . . . الآيات [آل عمران: ١٩٠]. وقوله ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان في نفسه، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك.

وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر: وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء؟ وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على

الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة. ومن آياته وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب.

وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف. وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاهد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في

هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال.

الموت

س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وآثره على الحياة؟
 ج: اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدئ، أو عارف متنبه. فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشغل بزمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً.
 وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)، من حديث عائشة ؓ]. فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهاً للقاءه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا. وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا في غالب الأمر يستبطن مجيء الموت. ويحب ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقه. فإذا التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله